وردة البحر

يُحْكَى أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ كَانَ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يُرْزَقْ وَلَدًا يَكُونُ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ وَيَرِثُ مُلْكَهُ الْعَظِيمَ ، وَلِذٰلِكَ كَانَ دَائِمًا حَزِينَ الْقَلْبِ يَمِيلُ لِلْوَحْدَةِ وَالتَّفْكِيرِ ، وَيَنْفِرُ مِنَ الْحَيَاةِ وَمَظَاهِرِهَا ، حَتَّى إِنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُبْنَى لَهُ قَصْرٌ عَظِيمٌ عَلَى جَزِيرَةٍ مُنْعَزِلَةٍ فِي الْبَحْرِ ، وَأَنْتَقَلَ إِلَيْهِ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ حَضَرَ إِلَى قَصْرِهِ تَاجِرٌ مِنْ تُجَّارِ الرَّقِيقِ ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِ جَارِيَةً حَسْنَاءَ ، وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَيْهَا حَتَّى اشْتَرَاهَا مِنْهُ ، وَتَزَوَّجَهَا فِي الْحَالِ . وَقَدَّمَ إِلَيْهَا أَفْخَرَ الثِّيَابِ وَأَثْمَنَ الْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ ، وَأَسْكَنَهَا أَفْخَمَ جَنَاحٍ فِي الْقَصْرِ ، تُطِلُّ جَمِيعُ نَوَافِذِهِ عَلَى الْبَحْرِ ، وَأَقَامَ فِي خِدْمَتِهَا مِائَةً مِنَ الْجَوَارِي وَالْوَصِيفَاتِ ، وَأَحَاطَهَا بِعَطْفِهِ وَحُبِّهِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ . وَلٰكِنَّ الْغَرِيبَ مَعَ كُلِّ ذٰلِكَ أَنَّهَا لَمْ تُكَلِّمْهُ ، وَلَمْ تُكَلِّمْ أَحَدًا فِي الْقَصْرِ ، بَلْ كَانَتْ تَقْطَعُ الْوَقْتَ جَالِسَةً صَامِتَةً قُرْبَ إِحْدَى النَّوَافِذِ ، تَنْظُرُ إِلَى الْبَحْرِ ذَاهِلَةً كَئِيبَةً . وَمَضَى عَلَى هٰذَا الْحَالِ عَامٌ كَامِلٌ إِلَى أَنْ أَذِنَ الْبَشِيرُ أَنَّ الْمَلِكَةَ وَضَعَتْ مَوْلُودًا ذَكَرًا . فَكَادَ الْمَلِكُ يُجَنُّ مِنْ فَرْطِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ . وَذَهَبَ إِلَى الْمَلِكَةِ ، وَرَكَعَ عِنْدَ قَدَمَيْهَا ، وَقَالَ : « مَلِكَتِي الْمَحْبُوبَةَ ، لَقَدْ أَدْخَلْتِ عَلَى نَفْسِي السَّعَادَةَ وَالْهَنَاءَ ، وَلٰكِنْ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ وَاحِدٌ حَتَّى تَكْمُلَ هٰذِهِ السَّعَادَةُ : كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ شَفَتَيْكِ . هٰذَا كُلُّ مَا أَرْجُو . »

عِنْدَ ذٰلِكَ ابْتَسَمَتِ الْمَلِكَةُ وَقَالَتْ : « آهٍ يَا مَلِيكِي . لَقَدْ كُنْتَ حَقًّا شَفِيقًا رَفِيقًا فِي مُعَامَلَتِي مُنْذُ أَحْضَرَنِي التَّاجِرُ إِلَى قَصْرِكَ ، وَلٰكِنْ لَقَدْ عَقَدَ الْأَلَمُ لِسَانِي عَنِ الْكَلَامِ طُولَ هٰذِهِ الْمُدَّةِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْلِمِ حَقًّا أَنْ تُبَاعَ أَمِيرَةٌ وَتُشْتَرَى فِي سُوقِ الرَّقِيقِ . » فَذُهِلَ الْمَلِكُ وَقَالَ : « مَا هٰذَا ! أَحَقًّا أَنْتِ أَمِيرَةٌ ؟! »

قَالَتْ : « نَعَمْ أَنَا الْأَمِيرَةُ وَرْدَةُ الْبَحْرِ ، وَأَخِي الْمَلِكُ صَلَاحٌ ، يَحْكُمُ أَغْنَى مَمْلَكَةٍ فِي أَعْمَاقِ الْمُحِيطِ ، وَحَدَثَ أَنَّنَا لِلْأَسَفِ اخْتَلَفْنَا ، وَتَخَاصَمْنَا ، فَقَدْ هَاجَمَتْنَا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ جُيُوشُ الْأَعْدَاءِ ، وَهَدَمَتْ قَصْرَنَا ، وَخَافَ

أَخِي أَن أَقَعَ أَسِيرَةً فِى يَدِ الْعَدُوِّ ، فَاقْتَرَحَ أَنْ أَقْتَرِنَ بِأَمِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ الأَرْضِ ، فَعَضَضْتُ لِمِثْلِ هٰذَا الاقْتِرَاحِ ، وَخَرَجْتُ مِنَ الأَعْمَاقِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى سَطْحِ الْمُحِيطِ ، وَكُنْتُ قَرِيبَةً مِنْ جَزِيرَتِكَ ، فَجَلَسْتُ عَلَى شَاطِئِهَا أَسْتَرِيحُ ، فَوَجَدَنِى التَّاجِرُ ، وَأَحْضَرَنِى عِنْدَكَ وَبَاعَنِى كَمَا يُبَاعُ الرَّقِيقُ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : « وَلٰكِنِّى لَمْ أُعَامِلْكِ مُعَامَلَةَ الرَّقِيقِ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ » فَقَالَتْ وَرْدَةُ الْبَحْرِ : « هٰذَا صَحِيحٌ ، وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ، وَلأَنِّى أَحْسَسْتُ أَنَّكَ تُحِبُّنِى مِنْ قَلْبِكَ ، وَقَدْ جَعَلَتْنِى مَلِكَتَكَ ، فَإِنِّى لَمْ أُرِدْ نَفْسِى فِى الْبَحْرِ وَأَعُودَ إِلَى أُخْتِى كَمَا كُنْتُ أَنْوِى . وَالآنَ ، وَقَدْ صَارَ لِى وَلَدٌ ، يَجِبُ أَنْ أَدْعُوَ صَلاَحاً لِرُؤْيَتِهِ . » ثُمَّ إِنَّهَا أَمَرَتْ إِحْدَى الْوَصِيفَاتِ أَنْ تُحْضِرَ مِبْخَرَةً فِيهَا بَعْضٌ مِنَ الْجَمْرِ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ أَخْرَجَتْ صُنْدُوقاً صَغِيراً ، وَأَخَذَتْ مِنْهُ قِطْعَةً مِنَ الْبُخُورِ ، وَوَضَعَتْهَا عَلَى النَّارِ فَانْتَشَرَ الدُّخَانُ ، وَخَرَجَ مِنَ النَّافِذَةِ ، وَتَمْتَمَتْ بَعْضَ كَلِمَاتٍ بِلِسَانٍ غَرِيبٍ . وَهُنَا ابْتَدَأَ الْبَحْرُ يَضْطَرِبُ وَانْشَقَّتِ الأَمْوَاجُ وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهَا رَجُلٌ يَافِعٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ مَهِيبُ الطَّلْعَةِ ،

وخرج من بينها رجل طويل القامة ...

فِي ثِيَابٍ فَاخِرَةٍ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ . وَتَقَدَّمَ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ يُحِيطُ بِهِ رَهْطٌ مِنَ الْأَتْبَاعِ مِنْ سَيِّدَاتٍ وَرِجَالٍ . وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقَصْرِ، وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَى أُخْتِهِ حَتَّى قَالَ : « أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ ، لَا غَضَبَ وَلَا خِصَامَ الْيَوْمَ يَا وَرْدَةَ الْبَحْرِ ، فَقَدْ قَهَرْتُ جَمِيعَ الْأَعْدَاءِ فَعُودِي الْآنَ آمِنَةً إِلَى وَطَنِكِ ، وَتَزَوَّجِي بِأَمِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ الْبَحْرِ . » فَقَالَتْ : « شُكْرًا لَكَ يَا صَلَاحُ فَأَنَا الْآنَ مُتَزَوِّجَةٌ ، وَهٰذَا زَوْجِي مَلِكُ الْعَجَمِ ، وَهٰذَا وَلَدُنَا الصَّغِيرُ . »

وَهُنَا حَمَلَ صَلَاحُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ ، وَقَفَزَ مِنَ النَّافِذَةِ إِلَى الْبَحْرِ وَاخْتَفَى تَحْتَ الْمَاءِ . فَصُعِقَ الْمَلِكُ مِنْ هَوْلِ الْمَنْظَرِ ، وَلٰكِنَّ الْمَلِكَةَ هَدَّأَتْ رَوْعَهُ ، وَقَالَتْ : « لَا تَخَفْ ، إِنَّ صَلَاحًا لَمْ يَفْعَلْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ فِي نِيَّتِي فِعْلَهُ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَقَّقَ أَنْ كَانَ طِفْلُنَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعِيشَ تَحْتَ الْمَاءِ كَمَا يَعِيشُ قَوْمُنَا فِي مَمْلَكَةِ الْبِحَارِ . » — وَبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ عَادَ لِلْمَلِكِ هُدُوءُهُ وَانْشِرَاحُهُ ، فَقَدْ عَادَ صَلَاحُ يَحْمِلُ الْأَمِيرَ الصَّغِيرَ ، وَهُوَ يُغَرِّدُ تَغْرِيدَ الطُّفُولَةِ السَّعِيدَةِ ، فَقَدْ تَنَفَّسَ الْمَاءَ الْمَالِحَ بِنَفْسِ السُّهُولَةِ الَّتِي تَنَفَّسَ بِهَا الْهَوَاءَ ، وَلَمْ يَبْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ مَلَابِسِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ فِي الْمَاءِ .

قَالَ مَلِكُ الْعَجَمِ : « هٰذَا يَوْمُ الْأَعَاجِيبِ . كَأَنَّنِي فِي حُلْمٍ وَوَاللهِ لَوْ لَمْ أَرَ كُلَّ هٰذَا بِعَيْنِي لَمَا صَدَّقْتُ شَيْئًا مِنْهُ . »

لَقَدْ شَعَرَ الْمَلِكُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِالْآلَامِ وَالْحِرْمَانِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْوَى عَلَى الْغَوْصِ فِي الْبَحْرِ إِلَى الْأَعْمَاقِ كَزَوْجِهِ الْمَلِكَةِ وَابْنِهِ وَلِيِّ الْعَهْدِ وَزِيَارَةِ مَمْلَكَةِ الْبِحَارِ الْعَجِيبَةِ ، وَلٰكِنَّهُ قَنِعَ فِي النِّهَايَةِ بِنَصِيبِهِ وَاكْتَفَى أَنْ يَسْمَعَ عَنْ عَجَائِبِ هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ مِنْ زَوْجِهِ الْمَحْبُوبَةِ وَوَلَدِهِ الْعَزِيزِ .